

العلامة ابن غديان.. منبر العلم ومحراب العبادة وشيخ النقل والعقل
والرأي والفكر (١ / ٣)
الدكتور سعد بن مطر العتيبي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. أما بعد:

إنَّ الحديث الوافي عن الكبار عسير.. غير أنَّ سيرتهم لا تخلوا من منارات للمستهدين، ودوافع خير للراغبين.. ومن ثمَّ فالحديث عنهم مهما قلَّ، يكشف للأجيال أمثلة معاصرة من رموز الصلاح والتقوى والعلم، ويجعل شواهد بعض ما يقرؤون من سير الأعلام النبلاء ما ثلة للعيان، كما يرسم للأجيال منطلقات جدِّ، وقدوات عمل، بعيداً عن النعي المذموم..

من هنا كان حديثي عن هذا العلم الكبير..

التقيته في صغري وفي دار الإفتاء وفي مسجدها مرات، وكنت في بعضها غير مرتاح.. نعم! ولكن كم هي الفروق بين انطباعات البعيد وقناعات القريب! لكأنها فرع عن الفروق بين انطباعات من يُنظر في الدُّهن، وقناعات من يطبق في الميدان! بل لكأنها قناعات من يسمع - حقاً وباطلاً - ومن يرى الحقائق رأي العين! فما رأي كمن سمعاً.. وكيف يكذب عينه من رأى بها!

نعم! التقيته، ولم أكن أعلم حينها حقيقة: أنني كنت أمام منبر علم نادر، ومحراب عبادة عتيق، وعقل في الرأي ثاقب، وزهد في الدنيا عجيب، هكذا أحسبه ولا أزكي على الله أحداً.. تلك الصفات هي الحقيقة التي يشهد بها العارفون له..

ذلكم هو شيخ عدد من شيوخي، وشيخي الذي أفدت منه كثيراً كثيراً.. إنَّه الشيخ الفقيه الأصولي الزاهد العابد العلامة / عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن قاسم آل غديان، المولود عام ١٣٤٥ هـ في مدينة الزلفي، من ديار نجد جزيرة العرب. و يرجع نسبه إلى آل محدث من بني العنبر من بني عمرو بن تميم؛ ويرجع نسب أمه إلى آل راشد من عتيبة،

من قبيلة هوازن.

نعم لم أكن أعلم حينها بعض تلك الصفات آنفة الذكر - لشيخنا العلامة عبد الله بن غديان - فضلاً عن جلّها، إلا بعد أن خالطته مخالطة التلميذ شيخه، وجلست بين يديه (دارساً) في المعهد العالي للقضاء، وطالباً في حلقة الدرس بالمسجد، أو زائراً في استشارة علمية أو شخصية، أو سامعاً لاستشارة تصدر منه في جواب حاضر أو متحدث في هاتف، ومنتبهاً لبعض خبره تتبع المحب له و المعجب بصفاته تلك، التي قل أن تجتمع في عالم يشار إليه بالبنان فضلاً عن غيره.. وتلك الصفات التي ذكرتها من قبل، ليست إلا منطلقات هادية إلى طريق الحديث عن بعض ما يفيد الجيل من سيرته، ولذا جعلتها محور هذا الحديث - الموجز - وهذه النتف عنه!

(1) أمّا الزهد في الدنيا، فسأجمل الحديث فيه؛ لأنّ فيه من الخفايا والأسرار ما لا يكاد يُصدّق فيه من تحدّث، ولذا فلن أتحدث عن تفاصيل قصة الشيك الذي كتبه الشيخ رحمه الله في أواخر حياته لدائنه (الذي يعرف الشيخ وزهده)، ولا كيف أعلم الدائن الشيخ فيما بعد: أنه شيك بلا رصيد! فما كان من الشيخ إلا أن قال: تجده إن شاء الله.. قريباً ينزل الراتب! بينما الظنّ بمثل حاله عند من لا يعلمه أنّ رصيد مثله لا ينضب!

ولن أتحدث عن تفاصيل قصة الراتب الذي وعد به الشيخ دائنه! فهو راتب منقوص! تسترد منه الدولة نسبة التقاعد، مع أن صاحبه يستحق الراتب كاملاً - بحسب الأنظمة - منذ أربعة وعشرين عاماً تقريباً!

ولن أتحدث عن تفاصيل امتلاك الشيخ دارته، التي لم يمتلكها ملكاً خالياً من الدين، إلا قبل وفاته بثلاث سنين أو تزيد قليلاً!

ويكفيك من ذلك كلّ أن تعلم أن الشيخ رحمه الله لا يظهر عليه شيء من التمظهر بالزي المتميز الذي يحرص عليه بعض طلبة العلم، فضلاً عن أقرانه من كبار العلماء الأجلاء، حتى إنه لا يمكنك معرفته حين تراه رأي العين، إلا أن تكون قد عرفته من قبل، أو أن يُعلمك من يعرفه بأنه هو! وكم سأله سائل عن نفسه قائلاً له: أين الشيخ ابن غديان؟ فيجيب الشيخ بكل تواضع: وصلت، وش تبي منه؟ وش عندك؟

وكم سألني في مسجده من شخص: أين الشيخ ابن غديان؟ قالوا لي إنه إمام مسجد الإفتاء؟.. والشيخ واقف يؤدي السنة القبلية أو البعدية! أو يأتي داخلا المسجد، ويتقدم ليصلي بالناس؛ فتجد نظرة التعجب في عين الباحث عنه! وكأنه يقول: أهو هو يا ترى؟ بل منهم من انتظر حتى انتهينا من الصلاة فاتجه إلى الشيخ يسأله مستبعداً أن يكون هو: أين الشيخ ابن غديان؟

(2) وأما العبادة، فسأجمل الحديث فيها أيضاً؛ لأنني اكتشفت أنني لا أعلم عنها إلا القليل، وقد علمت أنني إنما أدركته - منذ عام ثلاثة عشر وأربعمائة وألف - بعد أن ضعف جسمه عن القيام بما كان يقوم به من العبادة من قبل! بسبب عوارض صحية، كان أثرها عليه ظاهراً في صلاته، مما قد يستغربه بعض من لم يعرف عذره، وهذا يذكرني بقصة مالك رحمه الله وسدله يده في الصلاة بسبب ما جرى له..

ومما رأيته من عبادته:

◆ كثرة قراءته للقرآن الكريم، وعنايته به قصد التدبر؛ وقد أرشدني رحمه الله إلا تقسيم مصحفي (طبعة الشمرلي)، على نحو تقسيم ما يعرف بـ(المصحف الباكستاني) الذي يرسم بالحرف الأردني؛ لأن كل ربع حزب (ثمان جزء) منه يتضمن قسمين يطلق على كل منها ركوعاً، فالربع فيه ركوعان، وأن تقسيمهما أقرب إلى التقسيم الموضوعي الذي يفيد في التدبر، كما يقول رحمه الله! وأنه مقسم للسير عليه في إمامة الناس في الصلاة الجهرية.

وقد أوتي الشيخ رحمه الله خفة لسان في القراءة؛ فهو سريع القراءة.. وقد قدرت له قراءة سورة الدخان بقراءة سورة الفجر عند غيره - ممن لم يعتد السرعة في القراءة - تقريبا؛ وهي سرعة لا تكاد تشعر بها، لولا انقضاء قراءته سريعاً.. وقد حدثني ابن الشيخ عبد الله الشيخ الدكتور محمد أنه خرج مع الشيخ في سفر إلى الطائف بالسيارة، فما إن خرج من البنيان حتى قال: تقضب لي أبي أقرأ؟ قال: فبدأ بالفاتحة ودخلنا الطائف وهو في آخر الختمة! قرابة سبع أو ثمان ساعات! وله في هذا الأمر أخبار أخرى.

وقد قال لي الشيخ صالح المرشد (الواعظ العابد) رحمه الله ذات مساء - بعد أن سألتني آنذاك عن الدروس التي أحضرها -: هل صليت خلف ابن غديان؟ قلت: نعم! فقال معترضاً على سرعته: الله يهديه يسرع في القراءة؟ سمعته قرأ خمسة أجزاء في ساعة! ولا أدري كيف؟ أنا يا الله أقرأ أربعة أجزاء في الساعة! هكذا قال رحمه الله!

قلت: رحمكما الله! يا له من جيل تشبّع بحب القرآن؛ فتلاه لله! ولم يعرف جوائز حفظ، ولا تشجيع أفراد ولا مؤسسات؛ وإنما هو اليقين بعظمة القرآن وبركته على صاحبه دنيا وأخرى.. ومن اعتاد السرعة في تلاوة القرآن في المواسم - كشهر رمضان وعشر ذي الحجة ولا سيما يوم عرفة الذي ربما ختم الشيخ رحمه الله فيه ختمة كاملة أو تزيد - خفّ لسانه بالقرآن حتى يعان على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وليس ذلك إعراضاً منهم عن السنة، وإنما هو أثر من آثار عنايتهم بالمواسم ومراعاة فضائل الزمان والمكان وحرصهم على قيام الليل والله تعالى أعلم.. وتلك عادة ذلك الجيل، ورحم الله الوالد فقد كان يتلو القرآن على كل حال، في المنزل، و المسجد، وفي الطريق ماشياً، والسيارة راكباً!

♦ومما رأيته من صلاة الشيخ رحمه الله: كثرة صلاته للنوافل، مع عنايته بالسنن الراتبة، قبلية وبعديّة، وبصلاة الليل، وله في بدء وقتها رأي، وكان رحمه الله قبل بضع سنوات يصلي راتبة العشاء، ثم يصلي ما تيسر له فيما يقارب الأحد عشر أو الثلاثة عشر ركعة ويدعو في الوتر، ونحن ننتظره في مجلس الدرس، ثم ينصرف إلينا ويبدأ الدرس حتى وقت متأخر ولا سيما في فصل الصيف، واستمرّ على ذلك مدّة، ثم صار يصلي الليل في المنزل شأنه في غير أيام الدرس.

وقد حدثني عنه ابنه د. محمد بارك الله فيه ونفع به: أنهم كانوا ينصرفون من صلاة الفجر يوم الجمعة زمن الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، ثم يتسابقون بعد الصلاة لحجز أماكنهم لصلاة الجمعة في الصف الأول ويكون غالبيتهم قد ختموا القرآن قبل الأذان الثاني وكان الواحد منهم يعيب على من يراه يقرأ في المصحف. أهـ ما ذكره الشيخ محمد حفظه الله نقلاً عن الشيخ عبد الله رحمه الله.

وحدثني الشيخ د. محمد - أيضاً - أنه كان يذهب بالشيخ إلى المسجد بعد ذلك في الساعة التاسعة تقريباً ويشرع الشيخ بصلاة النافلة إلى حين دخول الخطيب، فيجمع في هذه العبادة أفاضلها وهي: الصلاة، وقراءة القرآن، والدعاء، والذكر.. وهذه عبادة مأثورة عن صالح سلف الأمة، ولربما قرأ في بعض أوقاته في مثل هذه الصلوات ما يتراوح ما بين ثلث القرآن ونصفه. ثم لما اشتدّ به المرض (الذي امتدّ سبع سنين) وأعجزه عن الذهاب مبكراً صار يذهب بعد ذلك شيئاً فشيئاً، حتى صار يتأخر لتضرره، رحمه الله وعظم مثوبته. أهـ ما ذكره الشيخ محمد حفظه الله.

قلت: والله لكأني أرى في هذا السلوك سلوك الوالد في صحته ومرضه! رحمهم الله وأجزل مثوبتهم! فيا له من جيل عرف قدر العبادة، وما أشغلته الدنيا عن الآخرة..

لقد بلغ من تعظيمهم للقرآن ما لا يعبر عنه إلا قول الله تعالى؟: ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ؟؛ فلقد رأيتُه أثناء خروجنا من الدرس يتوقف عند حامل مصحف، ويأخذ أحد المصاحف المنكوسة عليه ويجعل وجه المصحف إلى الأعلى! بينما تجد بعض الناس يضع المصحف على الأرض ويقرأ فيه وهو على تلك الحال! محتجا بفتوى في جواز ذلك! وكأن فتوى الجواز عند من يجيز تتعارض مع فتوى القلوب! ولكنه الجهل بقدر التعظيم، والغفلة عن الفروق بين فتوى العامة وسلوك الخاصة وما يصاحبه من نية التعبد والتربية..

بل لقد كان الشيخ رحمه الله يأتي لحلقة الدرس في المسجد، والطلاب قد أخذوا مقاعدهم، والكتب المترامية بين أيديهم تكاد تسد طريق الشيخ إلى مجلسه؛ فيأتي الشيخ يتخلل بين الكتب خشية أن يعلو شيئاً منها بقدمه أو حتى طرف ثوبه!!

وله في برّ أمّه أخبار، قال فيها ابنه الشيخ د. محمد حفظه الله إنّه: " أخبار لا يصدقها إلا من وقف عليها بنفسه، أو حدثه بها الشيخ - رحمه الله - ولقد كان من مواقف العجيبة، وبرّه بأمّه بأن اختاره سماحه الشيخ: ابن باز - رحمه الله - ليرافقه إلى المدينة النبوية عندما كُلف نائباً لرئيسها سماحه الشيخ: محمد بن إبراهيم - رحمه الله - فقال الشيخ عبدالله - رحمه الله - أنا القائم بشؤون والدتي وأرى من المصلحة أن

تبقى في الرياض، فقبل سماحه الشيخ: ابن باز - رحمه الله - اعتذاره وأوصاه خيراً بأمه. فهل نعجب من عذر الشيخ: عبدالله أو من قبول عذره من سماحه الشيخ: ابن باز - رحمة الله على الجميع. -

وأكتفي بهذا إلى حين المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

العلامة ابن غديان.. شيخ النقل والعقل والرأي (٣/٢)

في المقالة الأولى كان الحديث عن شيء من زهد الشيخ عبد الله الغديان رحمه الله، وعن شيء من عبادته ..

وفي هذه الثانية سيكون الحديث - إن شاء الله تعالى - عن شيء من علم الشيخ، ويمكن أن توضع تحت عنوان: (العلامة ابن غديان.. شيخ النقل والعقل والرأي والفكر..)

وقد وجدتني مضطراً لجعل هذا الموضوع في مقالتين، ثانية، وثالثة؛ إذ وجدت الحديث قد تجاوز ضعف هذه المقالة، ولا سيما بعد رسالة وردتني من بعض من يعز عندي، من محبي الشيخ رحمه الله.

وحتى تتصل المقالات الثلاث، أتمها على تسلسل فقراتها..

العلامة ابن غديان.. شيخ النقل والعقل والرأي والفكر (٣/٢)

سبق الحديث في الفقرة السابقة عن جانب الزهد والعبادة عند الشيخ العلامة عبد الله الغديان رحمه الله.. ولقد كنت ألمح في الدرس متأملاً حاله! وأرغب شيئاً من صفاته، ولن أبالغ إن قلت: إن من يقرأ واقع السيرة العلمية والعملية للشيخ رحمه الله، يجد فيها معالم صفات قل أن تجتمع في عالم واحد؛ ففي سيرته من أصالة وحذر علماء نجد، وجد وتحقيق علماء العراق، ولغة وطرح علماء المغرب، وتنسك وعبادة علماء الشام، وزهد علماء اليمن، وموسوعية علماء مصر - ما لا يكاد

يخفى على من له به اتصال.

ولمّا طلب الإخوة في (قناة دليل) حديثاً عن الشيخ عبد الله الغديان رحمه الله - وذلك مع فضيلة الشيخ / د. فهد الجهني سلمه الله - وجدتني أردّد بثقة عجيبة، عبارة تراثية كنت أستغربها لقربها من المبالغة، وهي قول بعض أهل التراجم عن بعض العلماء: "وحيد دهره، وفريد عصره!" وربما كان من أسباب ذلك أنّ من المترجمين من يخونه التعبير عن كل ما يعرف عن شيخه، حتى لا يجد بدأً من التعبير بهذه العبارة المأثورة عنهم.. ولا أظن أحداً يعرف الشيخ عن كثب، لا يجد لهذه العبارة مصداقية في سيرة هذا العلم، في هذا العصر.. وقد وقفت بعد إعداد هذه المقالة على مقالة بعنوان (زكاء يتلظى ذكاء)، راسلني بها فضيلة الشيخ د. عبد الوهاب الطريري سلمه الله، فوجدته قد رقم ذات المعنى واصفا شخصية الشيخ العلمية بقوله: "كان الشيخ شخصية علمية استثنائية في النمط العلمي المتتابع، ولم يوجد له نظير في الشخصيات العلمية المعروفة حيث اختط طريقاً غير مسلوک؛ فقد كان النمط العلمي خلال العقود المتعاقبة قبله معنياً بالعقيدة والفقہ ومشاركاً في غيرها، أمّا الشيخ فكان إضافة نوعية من حيث التعمق في الأصول والقواعد الفقهية ومقاصد الشريعة، مع الإتقان لعلوم المنطق والجدل ونحوها من العلوم التي لم تكن رائجة في المحيط العلمي آنذاك."

وعودا إلى أصل الموضوع أقول:

(3) وأمّا العلم؛ فإنّ علم الشيخ رحمه الله علم واسع نافع، يعمّق الإيمان، ويحفظ الكيان، جمع فيه بين النقل المعصوم والعقل المصون؛ فأثمر درء التعارض، ودقّة الإفصاح عن الرأي وبيان الفكر؛ حتى إنك تجد وصف (عالم) ينطبق عليه انطباقاً يذكرك بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء)؛ ويذكرني بحكاية أوردها العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، مبينا أنها مما مرّ به في بعض الكتب قديماً، قال رحمه الله " :يُذكر أنّ الشيطان - أبا الشياطين - الذي يجعل له كرسيّاً على البحر، ويبث جنوده وسراياه في إضلال الخلق، قالت له ذريته: لم تفرح بموت العالم أكثر مما تفرح بموت العابد؟ قال: لأن العالم يرشد الناس ويهديهم ويدلهم، ولا أتمكن من إضلاله، لكن العابد تنظلي عليه

الأمور!، قالوا: كيف ذلك؟ قال: أنا أختبرهم لكم، فأرسل من جنوده من يقول للعابد: هل يستطيع الله أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟، والعابد يعبد الله ليل نهار، ففكر وقال: لا يستطيع!!!، فرجع المندوب وقال: إنه يقول لا يستطيع، قال: انظروا الآن كفر الرجل وهو لا يدري!، فأرسله إلى العالم وقال له: هل يستطيع الله أن يجعل السموات والأرض في بيضة؟ قال العالم: نعم يستطيع؟ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؟، لو قال للسموات كوني في جوف بيضة كانت، إما أن تكبر البيضة أو تصغر السموات والأرض!!!.. فرجع إلى شيطانه وأخبره بقول العالم، قال: انظر!!!.. هذا تخلص وذاك المسكين كفر..!!

لقد كانت منهجية الشيخ عبد الله الغديان - رحمه الله - تقوم على بناء الشخصية العلمية، التي تملك أدوات النظر العلمي، وتمارس الدربة عليه من خلال التطبيق العملي، بربط المسائل الفقهية بقواعد تأصيلها فقهياً، فترك من انتظام الفقه في المؤلفات الفقهية ما يُدهش؛ وربط القواعد الأصولية وقواعد الاستدلال بأدلة نصوص الشريعة ما يؤكد انتماءها للثوابت التي تحفظ النصوص من عبث العابثين؛ فتهوى أمام طالب العلم كل دعاوى إعادة قراءة النصوص الشرعية على غير تلك القواعد، وتكشف لك سرّ ورطة بعض العقول أمام النصوص، وتردّ الورطة إلى تشابك ضعف التحصيل مع عقولهم، حين غاب عنها التأصيل..

وقد جرى ذكر الشيخ عبد الله الغديان رحمه الله وعنايته بعلم أصول الفقه في مجلس منذ ليلتين، فحكى لنا أستاذنا المفضل وشيخنا الجليل د. منير البياتي - حفظه الله - بعض خبره مع دعاة تجديد الفقه في بعض الجامعات الإسلامية ومعاناته منهم، وختم حديثه بقوله: قواعد الاستدلال الأصولية تحفظ الفقيه من الزلل في فهمه للنصوص الشرعية، كما تحفظ قواعد النحو المتحدث من اللحن في كلامه.

ولا أظنّ متابعاً للحراك الفكري إلا واجداً عند الشيخ جديداً في تفنيد مهالك الفكر، ومكتشفاً في علم الأوائل من الأجوبة ما يشفي غليل أولي الذكر، وكأنّ التاريخ يعيد نفسه شبهة وجواباً.. ولعلّ هذا من أسرار جاذبية دروس الشيخ لدى طلابه.. تلك الجاذبية العجيبة التي عبّر عنها أحد كبار تلاميذ الشيخ الملازمين له، فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبد العزيز العقيل - حفظه الله - حين وصف دروس الشيخ في قوله:

"من العلماء من تتلقى عنه حتى تأتي المرحلة التي ترى أنك لا تجد لديه مايمكن اعتباره إضافة على ما حصلته منه، إلا أنه وعلى مدى أكثر من ثلاثين سنة من تلقياالعلم عنه رحمه الله، فإنك تجد نفسك لا تستغني عنه وكأن علمه رحمه الله ليس له غايةتنتهي إليها."

لقد احترت كثيراً من أين أبدأ في الحديث حول علم الشيخ رحمه الله! فمنهجية الشيخ العلمية قد أوضح معالمها الشيخ الدكتور صالح بن عبد العزيز العقيل حفظه الله، وذلك في مقالته القيمة: "من مآثر العلامة ابن غديان وصفاته العلمية" لذا رأيت أن أكتفي بالإحالة إليها، في بيان تلك المعالم، وأن أحصر حديثي في محاولة التوقف عند خواطر من وحي ما يسرّ الله لي حضوره من الدروس العلمية ذاتها، وشيءٍ من فوائدها ومماراتها.. وذلك في الفقرات التالية:

أولاً: تدريس الشيخ في المعهد العالي للقضاء:

ما أحسنها مفاجأة! ويا لها من فرحة، حين وجدنا ذكر الشيخ (الغديان) في جدول اليوم الدراسي في المعهد.. هما محاضرتان متتاليتان في مقرر (القواعد الفقهية)، يجتمع فيها للشيخ طلاب القسمين: قسم الفقه المقارن، وقسم السياسة الشرعية، شأن كبار العلماء الذين يدرسون في المعهد العالي آنذاك؛ وقد تكرر ذلك في السنة الثانية التي كان يدرسننا فيها مقرر (مقاصد الشريعة).

وكانت أعداد الطلاب حينها أعداداً معقولة، قريبة من المعتاد في الدراسات العليا في الجامعات الأخرى، فقد كنّا نجتمع في قاعة دراسية واحدة بحجم فصل دراسي في المدارس المتوسطة (الإعدادية)! فيحاضرنا الشيخ - رحمه الله - بعد أن يتم تحضير الطلاب من قبل أحد الزملاء وأحياناً من قبل بعض موظفي شؤون الطلاب أو مدير شؤون الطلاب حينها أبي محمد سفر آل شبر سلمه الله، الذي كان يقدر أهل العلم الكبار تقدير الرجال الأوائل.. وأبو محمد من الشخصيات التي لا يمكن الحديث عن تاريخ تلك المرحلة دون أن يكون حاضراً في كل مشاهدتها؛ فقد كان من الموظفين الذين يرون أداء الوظيفة أمانة، والإخلاص فيها ديانة؛ فجزاه الله عنا خيراً.

وكان الشيخ عبد الله رحمه الله يعتمد في تدريسه (القواعد الفقهية) كتباً من المذاهب الأربعة؛ لنعرف القواعد المتفق عليها من القواعد المختلف فيها في مذاهب الأئمة، إضافة إلى معرفة الفروق بين صيغ القواعد عند كل مذهب، كما كان من أهدافه التي يصرح بها: الدربة على القراءة الصحيحة لهذه الكتب وما في معناها.

والكتب الرئيسية التي كان يفرضها الشيخ علينا: (الأشباه والنظائر) لابن نجيم الحنفي، و(الفروق) للقرافي المالكي، و(الأشباه والنظائر) للسيوطي الشافعي، و(القواعد) لابن رجب الحنبلي؛ ينتقي من كلٍّ منها أهم القواعد، مع جملة من القواعد من كل الأبواب، يشرح ما يحتاج منها إلى شرح، و يطالبنا بالباقي دون شرح منه؛ شأن الدراسات العليا.

كما كان يكلفنا أثناء الدراسة بأبحاث من نوع خاص؛ فتعليمه لا ينفك عن كتاب، وتكليفاته لنا لا تنفك عن كتاب! ويمكن أن يوصف تكليفه بالتطبيقات الفقهية للقواعد الفقهية؛ إذ كان يُقسّم كتب الشروح الفقهية المشهورة في المذاهب بين جميع الطلاب، يكون الكتاب الواحد بين اثنين أو ثلاثة أو أكثر بحسب حجم الكتاب - وكان نصيبي الجزء الثاني من كتاب (المهذب، للعلامة الشيرازي) وهو كتاب لوصل نسخته الوحيدة إلينا قصة، فبقية نسخه أحرقتها المؤلف!

أمّا المطلوب منّا، فهو: قراءة الكتاب، من خلال مشروع قراءة، يُلزمنا فيه بجمع كل ما يمرّ بنا من القواعد والضوابط الفقهية، مع ذكر المسألة التي عُلل حكمها بالقاعدة أو الضابط، والتفريق بين القواعد والضوابط؛ وتقوم فكرة هذا الطلب على حقيقة أفادها الشيخ رحمه الله، وصرح لنا بها في أكثر من درس، وهي: أنّ كتب الشروح الفقهية مظنة القواعد والضوابط الفقهية، فالفهاء يذكرون - عادة - في شروحهم: التعليل بالقواعد والضوابط الفقهية للمسائل، بعد ذكرهم الأدلة النصية لها.

وأما مقرر (علم المقاصد) فكان يشرح فيه كتابين رئيسيين هما: (الموافقات للشاطبي) [قسم المقاصد]، وكتاب (مقاصد الشريعة) للطاهر ابن عاشور. مع توضيحات مهمة لما يعرض من المسائل، وكان يتوقف عند مواطن الإشكالات، ولا سيما ما اشتهر منها بين الناس مع عدم دقته، كقول من يقول: إنّ الطوفي يقدم المصلحة على النص!

وكان لدرس الشيخ رحمه الله في المعهد العالي مذاق خاص وجاذبية هائلة؛ فلا يستطيع الطالب الجاد التفريط في درسه؛ لما يجده من فوائد، ولفترات مهمّة، قلّ أن يجدها عند غيره إن هو وجدها .

ولمّا قدّر لي - بعد ذلك - أن أعمل في لجان الامتحانات، وكان الشيخ رحمه الله لا يزال أحد أهمّ الشيوخ الذين يدرّسون في المعهد، كنت أسرّ كثيراً حين أنتدب لتسليمه أجوبة الطلاب لتصحيحها، وذلك في مدينة الطائف؛ فقد كان تسليمها إليه واستلامها منه، فرصة للقاء به والجلوس بين يديه؛ بل كنت أحياناً أذهب لاستلامها منه مسافراً من الرياض إلى الطائف؛ فأجده لم ينته منها بعد، فيقعدي عنده وهو يصحح، وألحظ فيه أناة في التصحيح، وتفاعلاً مع الإجابة، ما بين ابتسامة و عبوس، وتعجب.

وأكتفي بهذا القدر في هذه المقالة، متوقفاً عند فقرة الحديث عن دروس الشيخ في المسجد؛ لتكون أولى موضوعات المقالة التالية إن شاء الله، مع حديث عن تراث الشيخ رحمة الله عليه.

العلامة ابن غديان.. منبر العلم ومحراب العبادة

وشيخ النقل والعقل والرأي والفكر (3/3)

في المقالة السابقة ذكرت شيئاً من طريقة الشيخ في تدريس طلاب الدراسات العليا في المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وهي المرحلة الأخيرة من تدريسه في المؤسسات العلمية النظامية بعد انتقاله من سلك القضاء؛ إذ سبقها تعيينه مدرسا بالمعهد العلمي عام ١٣٧٨ هـ، ثم تعيينه مدرساً في كلية الشريعة عام ١٣٨٠ هـ، وقبل نقله عضو إفتاء في دار الإفتاء عام ١٣٨٦ هـ، وتعيينه عضواً للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء عام ١٣٩١ هـ، بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء، وهو العضو الوحيد الذي بقي في الهيئة منذ تأسيسها وحتى

وفاته.

إلا أنّ الشيخ رحمه الله كان منذ عام ١٣٩٥ هـ، يُدرّس - بالإضافة إلى عمله في الإفتاء- طلبة الدراسات العليا في كلية الشريعة بجامعة الإمام، في مقررات علم: الفقه، والأصول، وقواعد الفقه، وقاعة البحث، وغيرها، ويشرف ويشارك في مناقشة بعض الرسائل العلمية. ومن ذلك تدريسه في المعهد العالي للقضاء، فقد كان أثناء عمله في الإفتاء ؛ و كان - رحمه الله - أثناء مرحلة تدريسه لنا يلقي محاضراته في المعهد العالي للقضاء، ثم يعود إلى دار الإفتاء ليكمل عمله هناك.

ومراعاةً لعمله في الإفتاء، كان رحمه الله، ينهي المقرّر قبل انتهاء السنة الدراسية بأسبوعين أو أكثر ؛ ليتمكن من الانتقال إلى مدينة الطائف، المقرّ الصيفي للإفتاء.

وقد أخبرني ابنه الشيخ الدكتور محمد الغديان - سلمه الله - أنّ الشيخ رحمه الله: "قد شارك مستشاراً علمياً محكماً لبداية تأسيس الموسوعة الفقهية الكويتية ، حيث كانت تأتي إليه أبحاث هذه الموسوعة، مفرقة حسب ترتيبها الاصطلاحي ثم يقوم - رحمه الله - بقراءتها ومراجعتها وتحكيمها حسب الأصول العلمية الأكاديمية."

وكان حريصاً على هذا العمل الموسوعي، فقد قال ابنه الدكتور محمد: "كان - رحمه الله - من أشد الناس فرحاً بإصدار هذه الموسوعة كاملة، كما كان - رحمه الله - ينتظر بفارغ الصبر صدور الأجزاء الأولى من الموسوعة الأصولية التي لا تزال وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دوله الكويت التي تعدها."

ثانياً: دروس الشيخ في المسجد:

وأما تدريس الشيخ في الحلقات العلمية في المساجد، فقد كانت بداياته المنتظمة منذ عام ١٣٨٩ هـ، إلى قبيل وفاته، إذ اشتد مرضه واضطرّ للبقاء في المشفى.

وكان رحمه الله يقوم بتدريس الفقه، وأصوله، والقواعد الفقهية،

والحديث ومصطلحه، والتفسير وعلومه، والعقيدة، في حلقات منتظمة غالب أيام الأسبوع حسب الظروف بعد المغرب، وبعد العشاء، وأحياناً بعد الفجر وبعد العصر، وذلك في مدينة الرياض. وتنتقل هذه الدروس معه إلى مدينة الطائف مدة بقائه في الطائف، حيث المقر الصيفي لعمل رئاسة الإفتاء.

هذا إضافة إلى الدروس العامة المعتادة في نجد.. منها ما كان بعد صلاة العصر، وممن كان يقرأ عليه في هذا الوقت شيخنا العابد وصديق الوالد الشيخ المقرئ محمد بن قاسم الجعفري على ما أخبرني به الشيخ عبد الوهاب الطرييري حفظه الله. ومنها ما كان قبيل صلاة العشاء - بين الأذان والإقامة- ، وأحياناً بعد صلاة العشاء، وذلك حين كان الشيخ إماماً في مسجد ابن مرشد بحي دخنة، وكان ممن قرأ عليه في هذا الوقت آنذاك: الشيخ الدكتور عبد الوهاب الطرييري ؛ فقد أخبرني أنه قرأ على الشيخ عبد الله كتاب الحج من المنتقى، ومن مشكاة المصابيح، وأنه بعد إتمامه لكتاب الحج من المشكاة، طلب منه الشيخ إعادته مرة أخرى. ولدروس الشيخ العامة طريقة فيها تسهيل وتوضيح يناسبها، كما كان لوعظه طريقة لم تكن مألوفة في نجد على ما أخبرني به الشيخ عبد الوهاب، من أن الشيخ رحمه الله كان يُشعر كل فرد ممن أمامه أنه المخاطب بالوعظ ! ولهذا الأسلوب أثر لا يخفى.

وكان الشيخ رحمه الله قد اشتهر بالعلم والرجوع إليه في الفتوى حتى قبل استقراره في مدينة الرياض، وذلك حين كان بمدينة الزلفي، التي تعد أسرة الشيخ من قدامى أهلها. وكان العبارات المألوفة ما يردده من يفد إلى الشيخ سائلاً، من أنه جاء ليسأل الشيخ عبد الله الرحيم ! وهو اللقب المشهور لعائلة الشيخ حينها وعند أهالي الزلفي، قبل أن يشتهر الشيخ بالغديان.

وفي تلك الحقبة، وفي ذلك المسجد، ظهرت للشيخ رحمه الله دروس علمية متخصصة، في علم التفسير والأصول والقواعد. ومما وقفت على خبره - مؤكداً - من ذلك، ما حدثني به - في مدينة الطائف - معالي الشيخ العلامة الدكتور / عبد الكريم الخضير - حفظه الله - من أنه قرأ على الشيخ عبد الله الغديان: مقدمة تفسير الطبري، ومختصر التحرير، قال: وهو من الكتب المحببة للشيخ رحمه الله، وقواعد ابن رجب. وذلك

حين لازمه ملازمة الظل - كما يقال كناية عن شدة الملازمة - وذلك عام ١٣٩٣ و ١٣٩٤ و ١٣٩٥ هـ.

وكان رحمه الله يصنف الدروس في المسجد (كدروسه في مسجد الإفتاء، التي انتقلت إلى أخيراً إلى المسجد الذي بجوار داره) تصنيفاً مهماً؛ فقد سمعته غير مرة - منها ما كان حديثاً لنا في الدرس، ومنه ما كان خاصاً - يقول ما معناه: الدروس ينبغي أن يكون منها شيء للمدرّس، وشيء منها للطلاب، فالذي للمدرّس هو الذي في الكتب التي تفيده قراءتها عليه، والتي للطلاب هي التي تكون للمبتدئين، مما قد لا يكون فيه جديد بالنسبة له.

وكان يعدّ درس ليلة الثلاثاء من الدروس التي يفيد منها هو! وهو أقدم الدروس، ويغلب على من يحضره التخصص والعمل الأكاديمي، ولذلك كان الشيخ يعتني به، ومن ثمّ كان أكثر دروسه نفعاً؛ وهو درس نخبوي، لا يطبق البقاء فيه من لم يكن له دراسة سابقة في مجالاته. ومن الكتب الرئيسية في هذا الدرس التي استمرت إلى آخر درس له قبل وفاته: الموافقات للشاطبي، والفروق للقرافي، وشرح الكوكب المنير للفتوح، وقواعد الأحكام للعز بن عبد السلام، والمنثور للزركشي، وإعلام الموقعين لابن القيم، وشرح مراقي السعود، وغيرها.

وهناك كتب أخرى، تمت قراءتها في درس الشيخ قبل ذلك منها: الرسالة للإمام الشافعي، وتخرّيج الفروع على الأصول للزنجاني، والمنهاج في ترتيب الحجاج للباقي، والإنصاف للبطلّيوسي، وبعض رسائل ابن عابدين، والكافية في الجدل لإمام الحرمين الجويني.

وأخرى أضيفت بعد تلك الكتب، من مثل: الاعتصام للشاطبي، وأصول السرخسي، والإشارات الإلهية للطوفي، ومقاصد الشريعة لابن عاشور، وغيرها.

ثالثاً: شذرات في المنهجية أثناء الدرس:

• كان الشيخ رحمه الله جاداً في الشأن العلمي؛ ولذلك ربما فحص من يستأذنه في طلب العلم عنده، وربما استخدم أساليب لاذعة مع بعض

الطلاب في توجيهه أو تنبيهه، حتى إنَّ الابتسامة لا تكاد تفارق شفطي عددٍ من الطلاب ممن يُدركون ما يرمي إليه الشيخ، وصاحب الشأن قد لا يشعر لحدائثة عهده بالمجلس! وربما عاد الشيخ فلاطف ذلك الطالب تطيبيا لنفسه، ولا سيما إذا شعر بعدم استيعابه لمراده؛ ومع ذلك لا يكاد يخلو الدرس من طرفة أو حكاية أو خبر تاريخي قديم أو معاصر، ذي مغزى!

• وكان رحمه الله يحرص على ذكر مظانّ المسألة - عند المرور بها - لمزيد البحث؛ فيحيلنا إلى بعض أهم مواضع بحثها.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء في تعليقه على كتاب قواعد الأحكام: فصل فيما يثاب عليه من العلوم. إذ قال رحمه الله: "المقصود من هذا الفصل أن في هذه الشريعة قاعدة عامّة، هي قاعدة التفاضل، وقد يكون في ذات الشيء أو صفاته أو زمانه أو مكانه، أو من جهة الأقوال والأفعال باعتبار ما يترتب عليها من آثار.

ومن أراد التوسع فليرجع إلى آخر الجزء الثاني من الفروق، وتفسير؟ وربك يخلق ما يشاء ويختار؟، وقد تكلم عليها ابن القيم في أوّل زاد المعاد " أهـ.

ومن أمثلته أيضا: تعليقه رحمه الله على ما جاء في كتاب (تخرّيج الفروع على الأصول للزنجاني)، في المسألة الأولى من كتاب الصلاة، أن المصيب واحد في المُجْتَهَدَات. إذ قال رحمه الله: "أحسن من تكلم على هذا، الشاطبي في الموافقات، الجزء الرابع" أهـ [قبل صدور طبعة الشيخ مشهور].

• وكان رحمه الله من أكثر العلماء المعاصرين عناية بعلم أصول الفقه، الذي هو سور النصوص من اللصوص، وكذا القواعد الفقهية والمقاصدية، وكذلك كل ما يخدم المنهجية العلمية من العلوم، كعرفة أسباب الخلاف، وأوجه الاستدلال، ومصطلحات المذاهب الفقهية العامة، ومصطلحات الفقهاء الخاصة؛ وذلك في قاعات الدراسات النظامية، وفي حلقات المساجد.

وكان الشيخ يؤكد على أهمية فهم كلام أهل العلم على مرادهم، لا أن يقولوا ما لم يقولوه بقلة علم أو بسوء فهم. ولهذا لم يكن يرجح إلا نادرا ؛ بل سمعته غير مرة يقول لمن يسأله عن رأيه في بعض المسائل المشكلة التي تمر بنا في الدرس: المهم أن تفهموا كلام أهل العلم، أما ترجيحي فليس مهما!

ولذا فقد كان الشيخ رحمه الله يعجب كثيرا من المنتسبين للبحث الشرعي من المعاصرين ممن لا يفهمون كلام أهل العلم ؛ لقصورهم في هذه العلوم التي لا بد منها للفقهاء المؤصلين، ويصف طرحهم بأنه كثيرا ما يصدر عن فكر مجرد، لا صلة له بالبحث العلمي وأصوله.. وكان ذلك ظاهرا في تأكيد المتكبر على الفرق بين الحديث العلمي والكلام الفكري المجرد، وقد سمعته غير مرة يقول لبعض السائلين: (هذا كلام عن علم أو كلام من فكرك)؟

وقد ذكرت هذه الفائدة عن الشيخ في جواب كتبتة عنه في حياته رحمه الله، وهذا نصها: "... ثم إنني أنبه هنا إلى أهمية التفريق بين الطرح الفكري والطرح العلمي، فالطرح الفكري له مجاله، والطرح العلمي له مجاله وأدواته ؛ ومن ثم فإن الخلط بين المنهجين، واستعمال أحدهما في مجال الآخر يُنتج آثارا غير مقبولة عند أهل العلم ؛ وكم سمعت شيخنا العلامة الأصولي الكبير الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الغديان، يحذر من الطرح الفكري في مسائل التحقيق العلمي، ويرى أن كثيرا من الخطأ الموجود في الساحة من طلبه العلم في المسائل العلمية يعود إلى هذا الخلط المنهجي" (براءة العلامة ابن باز من القول في التطبيع بالجواز).

قلت: والحديث في الشرعيات من الفكر قبل استيفاء البحث، قضيةٌ وجدتُ العلامة ابن السمعاني رحمه الله قد عدّها في من أسباب التساهل في الفتوى.. وهو أمر مشاهد ، بل رأينا من يتحدّث في الشرعيات ممن لا صلة له بالعلم الشرعي، أو كان له بها صلة لكنه نسي أصولها، كبعض من تخرجوا في الشريعة ثم أعرضوا عن العلم حتى عادوا إلى الجهل بها جهل العامي سواء بسواء ؛ ولعل هذا ما حمل الشيخ على العناية بعلم الأصول والقواعد وطرائق استثمار النصوص.

قلت -كمراقبٍ للحراك الفكري-: وكم من واصل نفسه، أو موصوفٍ من

مثله بـ (الباحث الشرعي أو باحث شرعي)، وهو أفقر ما يكون إلى أصول البحث الشرعي وشرائطه!

وكم زاعم في نفسه القدرة على كتابة البحث الشرعي، وما هو إلا جماع انتقائي، لا يعي معنى كثير مما يجمع، إلا جملة الترجيح التي يناضل من أجلها! ثم يزعم أنه يدين الله بما وصل إليه في بحثه؟! وهذه طريقة مرفوضة عند أهل العلم، سواء كانوا من أصحاب المدرسة التقليدية، فإنهم لا يعتبرون العلم إلا عن أهله ممن أفنوا جزءا كبيرا من أعمارهم في التحصيل والتأصيل، حتى عُرفوا بين أهله بذلك؛ أو أصحاب الطريقة الأكاديمية في مؤسسات التعليم الأكاديمي، التي لا تقبل بحثاً إلا بعد فحصه من اثنين من أساتذة التخصص على الأقل، فيما يعرف بألية (تحكيم البحوث) التي يوصف البحث بعدها بأنه (بحث محكم)، أي أنه ذو قيمة علمية استوفى شرائطها عندهم.

• وكان للشيخ رحمه الله طريقة في الحديث العلمي، تأثرت بها طريقته في الفتوى، وهي إرجاع المسائل إلى أصولها وكلياتها وقواعدها، وربطها بما يفيد في تنزيلها على الواقعة بغض النظر عن صحة السؤال وسلامته؛ ولذلك ففتاوى الشيخ رحمه الله حصينة عن التوظيف العابث بها، كما أنها مدرسة في التعيد وبناء الملكة الفقهية، فليست مجرد أجوبة وقتية تختص بما ورد من أسئلة.

• وكان من منهجه رحمه الله، حمل كلام أهل العلم المحتمل على ما يُظن بهم من العلم والصلاح، بعيدا عن سوء الظن. بل لقد كان رحمه الله ينهي الطلاب عن الشطب على ما يُظن خطؤه طباعة، لأسباب منها: احتمال صحته، واحتمال خطأ الفهم عند المصحح، ولاسيما عند عدم كفاية الوقت في التأمل والبحث الذي يمكن اختبار صحة نتيجته.

ومما لا يمكن نسيانه في هذه الفقرة، ما نراه منه من استياء حين يمر بنا في الدرس شيء مما لا يُرتضى، فتجد الشيخ يسارع الدقائق والثواني في تجاوز تلك المخالفة أو ذاك التأويل المرذود، شأن من يحرص على ستر عيب لا يخلو منه بشر، وكأنه يزود بفعلة ذلك عن حبيب أو قريب!

وقد حدثني ابنه الدكتور/ محمد أنه تعامل بمثل هذا الأسلوب وهذه

الروح، في نصيحة بعض طلاب العلم ممن زلت بهم القدم أو تاه بهم الطريق عن سلوك المسالك الشرعية في معرفة الأحكام ، سواءً كان ذلك على انفراد أو بواسطة الهاتف؛ فرحم الله هذه الروح رحمة واسعة وعاملها الله بعفوه وكرامته فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

فهذا شأن من يعرف قدر أهل العلم، ولا يأخذهم بالزلّات.. فيا سبحان الله! أين هذا الخلق ممن يبتهجون جدلاً بوجود زلّة لعالم هنا أو داعية هناك، وجعلها معول هدم لقامة علم أو صرح علم أو مجتهد في الدعوة؟! في الوقت الذي سلم منهم أعداء الدين وخصوم الشريعة والمتربصين بها ليل نهار.

•ومن منهجه رحمه الله، أنه كان يعتني بالمسائل المهمة علمياً، ولا يحب التوقف عند المسائل التي تقل فائدتها العلمية؛ بل إنه يأمرنا بتجاوز المباحث الكلامية الخالصة التي ترد في كتب الأصول، كما وقع في كتاب (شرح الكوكب المنير) الذي كنت أشرف بقراءته عليه، وكما وقع في بعض كتب أسباب الخلاف، ككتاب (الإنصاف) للبطليوسي في بعض مواطن التأويل المخالف؛ بل إنه يتجاوز بعض المباحث التي يتوقف عندها بعض المتخصصين في أصول الفقه ويضيع فيها وقتاً كثيراً، بينما يقول لنا الشيخ رحمه الله: ما فيها شيء ! وهو في مثل هذا المواطن، يعني: أنها لا تستحق التوقف عندها ! فينتقل القاريء إلى ما بعدها، أو يمرّ بها مرورا عابرا. وقد يستخدم الشيخ عبارته السابقة في المسائل التي تكون مفهومة لا تستدعي التوقف عندها لوضوحها.

•وكان للشيخ رحمه الله عناية خاصة بالكتب والرسائل العلمية؛ ولتقييمه للكتب والرسائل وطبعاتها وزن خاص؛ وقل أن يثني على كتاب معاصر لعدم قناعته بقوة البحث فيه أو أصالته، لكنه ربما أوصى ببعض الكتب المعاصرة المتميزة، وأكد أهميتها في غير موضع.

رابعاً: تراث الشيخ:

للشيخ رحمه الله تراث كثير وكبير؛ وفي ظني أن الشيخ رحمه الله وجد في بيئة دون مستوى تحصيله وفكره.. وكأنّ هذا المعنى مما حال دون اشتغاله بالتأليف ! إضافة إلى انضمامه إلى مدرسة الشيخ عبد الرزاق

عفيفي رحمهما الله ! تلك المدرسة التي ترى الاشتغال ببيان العلم الأثري المكتوب، لتلاميذهم؛ لكي يرتبط اللاحق بالسابق، فيبقى العلم محفوظاً بأصوله، بعيداً عن الاستحداث في المناهج.

وهو منهج له وجاهته، ولا بد منه لاتصال الحاضر بالماضي، وضمان الاستقامة على قواعد الفهم وأصول الاستنباط الصحيح. فكم جنى الاستحداث في المناهج الشرعية بمعزل عن طريقة الأوائل من خلل؛ فأنت ترى من خالفوا منهج أهل السنة والجماعة في تقرير العقائد، قد استحدثوا مناهج كلامية لا قرار لها في العلم، ولا يقين بها في الاعتقاد؛ فكم جنت تلك المناهج على منهج أهل السنة والجماعة، وكم وقع بها من الغواية والهلاك. ولن أنسى يوم أن كنا ندرس شرح الطحاوية في المرحلة الجامعية وكانت تمرّ بنا النقولات الكلامية التي هي أبعد ما تكون عن أدب المخلوق مع الخالق فضلاً عن الأنبياء والرسل؛ فوجد أنفسنا أحوج ما نكون إلى شيءٍ من طراوة قراءة القرآن بعدها، والمرور على شيءٍ من صحيح الرقائق، كما نصحن بعض المربين من أساتذتنا في علم الأصول آنذاك!

وأنت ترى - أيضاً - من ينسف دلالات الإجماع استناداً إلى عدم القناعة بمعنى الإجماع عند المتكلمين من المؤلفين في علم الأصول، من الذين وضعوا للإجماع معنى يستحيل وجوده ! وما كان هو الإجماع الذي أحال إليه الشرع ولا هو الاتفاق أو عدم الخلاف الذي دل عليه الدليل و احتج به كبار الفقهاء.. وكذا الشأن في علوم الحديث، التي لو تكلمون بعض مباحثها مما لا شأن لعلم الكلام به. بل لقد رأينا مناهج يتفرد فيها بعض طلبة العلم بالأحاديث تضعيفا لأفرادها، ويعقبه بطرد الحكم على مجموعها وتقليص دلالاتها، ثم نسف ما بنى السلف من أحكام على مجموع المرويات مما يمكن الاستناد إليه فقهاً، حتى لو كان الحكم فيه محل اتفاق سابق لما قد يوجد من خلاف؛ فأسقطوا دلالة جملة المرويات ودلالة الاتفاق معاً ! فأحدثوا من الآراء ما هوش به من هوش؛ فوجدنا من يهون من بعض كبائر الذنوب استناداً إلى زعمه ضعف الحديث الذي عليه مبنى الحكم، وجعل نفسه في مقام بعض من صحّحه وأنزله منزلة الاحتجاج به من أئمة الشأن الأوائل؛ بل وجدنا من المنتسبين لطلب علم الحديث من يقلل من شأن أحكام الترمذي والنسائي وابن خزيمة وغيرهم من أهل الحديث رواية ودراية، وربما حار بعض هؤلاء في

صحة بعض الأحاديث التي لا تؤيد آراءهم فنقبوا عن تأويلات تُحرّف الكلم عن مواضعه، وادّعوا ذلك تحقيقاً وتمحيصاً وربما تجديداً، وبلغت بهم الجرأة حدّ التأليف والنشر.. والحديث هنا عن المنهج لا عن النوايا.. وهو أمر يطول الحديث فيه، لكنها إشارة ليس إلا، و حسب النذير نداء بلا أداة، هذا إن لم يفهم مراده على غير وجهه.

وعوداً على بدء.. فإنّ عدم اشتغال شيخنا عبد الله الغديان- رحمه الله - بالتأليف، ربما صرف بعض الناس عن تراثه؛ لتوهمهم ارتباط ذلك بالتأليف.

ولكن الناظر حقيقة تراث الشيخ في إرثه العلمي والتأصيلي، وفي تلاميذ الشيخ ممن تبوؤوا أماكن علمية عالية في كليات الشريعة في جامعة الإمام، وجامعة الملك خالد، وجامعة أم القرى، والجامعة الإسلامية، وجامعة الطائف وغيرها، وما أثرى به أولئك الساحة العلمية من مؤلفات ورسائل علمية ألفوها أو أشرفوا عليها أو ناقشوها، يجد للشيخ أثراً في طرحهم ونوعية مصادرهم وتنوع مراجعهم. وكم طالب أخذ علم شيخه فنشره، وكم مؤلّف لتلميذ لولا الله ثم شيخه لما قدر على نظم علومه، وكم تنبيه أو فائدة بلغت الآفاق في نفعها لأهل العلم فضلاً عن غيرهم، وكم من تلميذ قرّب علمه شيخه فساهم في نشر علمه وفكره، ومن الذي ينكر أثر تلاميذ الإمام أحمد في تقريب تبليغ علمه وتقريبه، وأثر ابن القيم في تقريب علوم ابن تيمية رحمهما الله! بل قيل: لولا أن الله هيا للأئمة الأربعة تلاميذ يبلغون علومهم لاندست مذاهبهم كما اندست مذاهب غيرهم. وكم من صالح العلماء ممن يتمنى لو انتشر علمه من غير أن يُنسب إليه؛ رجاء كمال الثواب!

ورحم الله من قال: لو لم يكن للعالم إلا طالب علم واحد ينتفع الناس بعلمه لكفاه ذلك الطالب؛ فإنه لا يصل شيء من علمه إلى أحد، فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر.

ومن هنا فينبغي أن لا يدخر تلاميذ الشيخ - وهم كثر بحمد الله - جهداً في نشر علمه؛ فإن لم يكن فلا أقل من جمعه لمن ينشره؛ فهو مدرسة في التأصيل نادرة، ولا يخلو طالب علم جاد من فوائد مدونة عن الشيخ يتيقن نسبتها إليه، من شرح أو تعليق أو جواب سؤال، ونحوه.

وكما أنّ للشيخ شروحا وتعليقات، فإنّ له آراءً واختياراتٍ وتنبيهاتٍ غاية في الأهمية العلمية وبناء الملكة الفقهية. وسأختار بعض تعليقاته من واحد - فقط - من الكتب التي درّسها في المسجد.

فمن ذلك على سبيل المثال: قوله في تعليقٍ له على كتاب (تخريج الفروع على الأصول للزنجاني) مبينا تعدد مدلول مصطلح القياس في كتب الفقهاء: طرد القاعدة في فروعها يسمّى قياساً، مثل: الأصل في الشريعة أن الأمور بمقاصدها... وقد يكون القياس في المقاصد، مثل: القياس أنّ الشارع لا ينهى إلا عمّا فيه مفسدة. وقد يكون القياس المعروف.

ومنها: قوله في تعليق له عند المسألة الثانية من كتاب الطلاق في ذات الكتاب: "قاعدة تغيير الأحكام بتغيير الأحوال والأزمان... هذه القاعدة من تغيير التطبيق لا من تغيير التشريع" أهـ.

وهذا تنبيه مهم جداً، ولا سيما في مجالات السياسة الشرعية؛ فإنّ من قواعدها: التدرج في التطبيق؛ وهي قاعدة تختلف عن التدرج في التشريع الذي لا شأن للفقيه به في الفتوى؛ لأنّه من قواعد التشريع الإلهي الذي انتهت مدته بانقطاع الوحي.

ومن ذلك قوله أيضاً: "لا يلزم في المسائل الحادثة أن تستند إلى دليل جزئي؛ لأنّه إذا وجد دليل جزئي فلا إشكال. لكن نردّها إلى قاعدة الشرع العامة في جلب المصالح ودفع المفساد؛ لكنّ هذا يحتاج إلى مجتهد."!

وهذه التنبيهات يعرف أهميتها لطالب العلم من عانى الفقه تنظيراً وتطبيقاً كالشيخ رحمه الله، وهي مما يختصر الطريق على طالب العلم.

والحق أن من جمع بين علم الأصول وعلم الفقه، ولم يقتصر على أحدهما؛ فإنه يكون غالباً من أدري الناس بفقه السياسة الشرعية وقواعدها؛ بل إن صاحب (الغصون المياسة اليانعة بأدلة أحكام السياسة)، قد بنى كتابه هذا (وهو في السياسة الشرعية) على المزج بين علم الأصول وفقه السياسة الشرعية.. وهو ما وجدت حقيقته في

دروس الشيخ رحمه، ولا شك أنه يورث فهما للسياسة وقوة في تأصيلها، ولا سيما في هذا العصر.

ومن أمثلة اختياراته التي خالف فيها بعض كبار شيوخه وأقربه إليهم: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، قول شيخنا رحمه الله في تعليق له على المسألة السابعة من كتاب الطهارة في كتاب تخريج الفروع على الأصول للزنجاني: "المجاز من جهة اللغة لا أحد يستطيع أن ينكره؛ أمّا في العقائد فلا يجوز المجاز فيها؛ لأنها مما استأثر الله بعلمه" قال: "وسمعت الشيخ الشنقيطي يقول: لو قلنا إنها كلّها حقائق، ولكن الحقائق مختلفة."

وللشيخ رحمه الله تجارب في استعمال القياس العقلي في الشرعيات . ومن ذلك قوله في أحد تعليقاته على شرح الكوكب (ج ٤، ص ١٣) عند قوله: " رجوع القياس الشرعي إلى العقلي من كونه على أربعة أركان " .. قال رحمه الله: العلة المادية، والصورية، والفاعلية، والغائية. ثم قال رحمه الله: وأنا طبقت هذه الأركان عدّة مرات، وهو جار في جميع أبواب الفقه؛ فكتاب الطهارة مثلاً: المادية = الماء، والصورية = كيفية الوضوء، والفاعلية = المتوضيء، والغائية = استباحة الصلاة.

ثم قال رحمه الله: وهذا مفيد في التنظيم. أهـ

ومن الفوائد التي قلّ أن تجدها في كتاب، قوله فيما معناه: إذا أردت معرفة أسباب الخلاف، ولم تجد من نصّ عليها، فانظر في توجيه المستدلين من أصحاب الأقوال لما يوردونه من أدلة؛ فإنّ هذا من طرق معرفة أسباب الخلاف!

وقد جربت ذلك كثيراً؛ فوجدته عظيم النفع في هذا الباب، وهو مفيد - أيضاً - في الجواب، ويورث القناعة للباحث؛ إذ إنّ معرفة أسباب الخلاف، والجواب عنها، شرط من شروط صحة الترجيح بين الأقوال والآراء.

ومما أودّ تأكيده في هذه المقالة: أنّ الشيخ رحمه الله، وإن لم يخلف مؤلفاً خاصاً، إلا أنّ له رحمه الله آثاراً علمية عظيمة باقية؛ منها ومن

مظانها ما يلي:

1- أن للشيخ رحمه الله جهد تأسيسي مشكور في تقرير علم الأصول والقواعد الفقهية ومناهج البحث - ونحوها من العلوم المهمة في بناء الملكة الفقهية والتأصيل العلمي الأصيل، وذلك في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد أكد لي ذلك ابنه فضيلة الشيخ الدكتور سعود سلمه الله.

2- أن الشيخ رحمه الله أحد الشخصيات الرئيسية في فتاوى اللجنة الدائمة، وفي قرارات هيئة كبار العلماء، كما مرّ.

3- أن الشيخ رحمه الله ترك تراثاً علمياً كبيراً في مجموع فتاوى برنامج (نور على الدرب) العريق، الذي بثته إذاعة القرآن الكريم وغيرها في المملكة العربية السعودية. وكم فتياً الشيخ فيه ليس بالقليل؛ فإنه رحمه الله تولى الإفتاء في برنامج نور على الدرب منذ وفاة سماحة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله عام ١٤٠٢ هـ؛ ولذا فهو جهد كبير يستحق العناية به، ولا سيما في أقسام أصول الفقه في المؤسسات الأكاديمية، وفي بحوث القواعد الفقهية وغيرها من موضوعات تلك الفتاوى؛ لما تميز به منهج الشيخ رحمه الله في الجواب من تعقيد وتأصيل. وقد أوصى بالعناية بها إمام الحرم المكي فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن السديس في مقالة له عن الشيخ رحمه الله، يحسن الرجوع إليها.

4- أن للشيخ رحمه الله تعليقات مهمة على رسالة ضخمة، وهي أطروحة ابنه الشيخ الدكتور سعود التي هي في طريقها للنور قريباً إن شاء الله تعالى.

5- أن للشيخ رحمه الله تعليقات كثيرة، وتأصيلات مهمة دونها في مجلسه عدد من تلاميذه، ممن سبق ذكرهم أو الإشارة إلى مواقعهم العلمية، ومن أقدمهم ملازمة للشيخ وأخذاً عنه معالي الشيخ عبد الكريم الخضير حفظه الله، وشيخنا الأستاذ الدكتور عياض السلمي الذي كان ينقل لنا بعض آراء الشيخ أثناء تدريسه لنا في كلية الشريعة، كما نقل بعض آراء الشيخ في بعض مؤلفاته ومنها رأي الشيخ في تحقيق بعض كتب الأصول.. و من أكثر تلاميذ الشيخ عناية بتعليقاته تدوين آرائه،

ممن لازمواه إلى حين توقف دروسه قبل وفاته: الشيخان/ الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، والشيخ الدكتور صالح بن عبد العزيز العقيل، إضافة إلى عدد من تلاميذه، ممن كانوا يكتبون جلّ ما يقوله كالأستاذ إبراهيم العبيد، والأخ أنس العقيل، وغيرهم من الأساتذة الفضلاء والإخوة الكرام.

6- ثم إنَّ للشيخ إملاءات مهمة على قلمها، كما في درسه في جامع الراجحي، وهي مسجلة.

7- ثم إنَّ من مظانِّ علم الشيخ المقطوع بها: ما دونه أولاده - بنين وبنات- عنه في شتى التخصصات التي اشتهر بها الشيخ رحمه الله؛ فمن أبناء الشيخ من هو متخصص في القواعد الفقهية كالشيخ سعود، وإحدى بناته، ومنهم من هو متخصص في الفقه كابنه الدكتور محمد، والشيخ بندر، الذي هو مرحلة الدكتوراه في قسم الفقه بالمعهد العالي للقضاء، واثنين من بناته: إحداهما دكتورة والأخرى محاضرة في قسم الفقه بكلية الشريعة.

كما أنَّ له رحمه الله عدد من الأولاد، منهم المتزوج، وذو الأولاد وجلّهم جامعيون، ومنهم من هو في الطريق وفقنا الله وإياهم وبارك في الجميع. ولا يخلو أحد منهم من فائدة أو خبر عن الشيخ؛ ولا سيما أن لبعض بنات الشيخ أسئلة علمية ومدارسة كانت تتم بين صلاتي المغرب والعشاء غالباً، وهو وقت الشيخ مع عائلته. ومن بناته المتزوجات من تهاتفه في شيءٍ من الفقه والاستشارة.

وهكذا سيجد الباحث عن تراث الشيخ كمّاً هائلاً وعلماً غزيراً، وتأصيلاً عميقاً، للكثير من القضايا المعاصرة فضلاً عن غيره.

خامساً: رأي الشيخ وأهميته:

وأما رأي الشيخ واستشارات الناس له، واللجوء إلى رأيه، فأمر يكفي في التنبيه إليه: أنه من الشخصيات التي لا يكاد يستغنى عن رأيها في هيئة كبار العلماء وفي اللجنة الدائمة للإفتاء؛ بل ربما أجلت بعض الموضوعات في حال غيابه إلى حين حضوره.

وكذا الشأن خارج دائرة العمل؛ فربما استأذن الشيخ تلاميذه وخرج من
الدرس برهة قد تمتد حتى يصرفنا؛ ليبيدي رأيه لمسؤول قصده في
المسجد أثناء الدرس، ومنهم من يأتي بعد الدرس أو قبله، وهم في
الغالب من الأعيان، وأحيانا من كبار تلاميذ الشيخ، ممن اشتغلوا في
مناصب إدارية علمية أو دعوية أو إدارية قضائية، أو كانوا من أعضاء
مجلس الشورى، أو مسؤولي الجامعات أو غيرهم.

هذا فضلاً عن استشارات تلاميذه له.

ولعلي أختم بآخر استشارة طلبت فيها رأي الشيخ رحمه الله؛ فقد
استكتبت في أحد الموضوعات ضمن مناقش إحدى المؤسسات العلمية في
المملكة؛ وكان ذلك إثر آخر درس كان له في هذه الدنيا، حين أخذني
بيدي بعد أن اقتربنا من باب داره، وقال: لا تشارك في هذا الموضوع!
فبينت له بعض الإيجابيات، فاستدار إلي بكل جسده - وكنا نمشي سوياً -
مديراً ظهره لبعض الطلاب الذين يمشون إلى جانبه وقد رفع صوته من
شدة حرصه: اسمعني! لا تكتب في ها الموضوع؛ ولثقتي في رأي
الشيخ ومعرفتي بحساسية ذلك الموضوع، قلت له: أبشر يا شيخنا سوف
أعتذر منهم؛ فأخذني ناحية وبيّن لي بعض الأسباب التي تؤيد رأيه، مما
زادني قناعة برأيه، فقبلت رأيه عن قناعة، وقبلت رأسه، وودعته
وانصرفت إلى السيارة؛ ثم اتصلت مباشرة بالمسؤول عن ذلك الموضوع،
واعترت عن الكتابة لهم.. وقد رأيت بل واستمتعت بالآثار الحسنة
لأخذي برأي الشيخ رحمه الله! مع أن بعض تلك الآثار لا علاقة لها
بذات الموضوع، فدعوت له، وكان حينها قد دخل المشفى رحمه الله..

وما أحسن أن تجد شيخاً أبويًا، راسخاً في العلم يعلمك، وهو ذاته من
تستشيره لقوة رأيه ورجاحة عقله، وصدقته في النصيح؛ فتخرج مقتنعاً
برأيه، ثقة فيه، إضافة إلى وجاهة ما يورده من تعليل لرأيه.

وها هي الكتابة عن الشيخ في هذه المقالات تتوقف عند هذا الحد؛ إذ كان
الغرض منها التنبيه إلى شيء من علم الشيخ وعمله؛ ليجد فيها السالك
تشجيعاً في السلوك، ويجد فيها الباحث الشرعي تراثاً علمياً وتطبيقاً
عصرياً؛ ليتصل علم السابق باللاحق على نهج صحيح، بعيداً عن

الانحراف والتحريف؛ فقلّ أن تجد مثل الشيخ خريج المدرسة التقليدية
المؤصّلة، والمدرسة الأكاديمية المنظّمة.

رحم الله شيخنا عبد الله بن عبد الرحمن الغديان، وجعل قبره روضة من
رياض الجنة، وجمعنا به في جنّته برحمته وفضله.

كتبه/ سعد بن مطر العتيبي

مدينة الباحة 8/1431 هـ